سلسلة الصحابة الأخيار

أبو ذر الغفاري





إنّهُ يومٌ من الأيّامِ الحارَّةِ اللاّهِبَةِ الّتي اعتادَ النّـاسُ عليها في شِبْهِ جَزيرَةِ العرَبِ.

كانَ اللّهُ سُبحانَهُ قد بَعَثَ النّبيَّ مُحَمَّداً ﷺ بالنُّبوَّةِ مُنـذُ فترَةٍ يَسيرَةٍ، وما زالَتْ دعوَتُهُ في بِدايَتِها.

بعيداً عن مكّةَ المُكرَّمَةِ خرجَ رجُلٌ من رِجالِ قبيلَةِ غِفارٍ قاصِداً المكانَ الّذي انتَصَبَتْ فيهِ تماثيـلُ القَومِ وأصنامُهُـم، لأداءِ الصَّلاةِ هُناكَ، والتَّضَرُّعِ إلى صَنَمٍ اسمُهُ(مَناةُ)، حامِـلاً وِعاءً مملوءاً باللّبَنِ الطّـازَجِ الّذي أرادَ أن يَسقيَ منهُ آلِهَتَـهِ المُقَدَّسَةِ! سُرعانَ ما أنهى الرَّجُلُ صَلاتَهُ، وراحَ يُتَمْتِمُ بِبَعضِ الأدعِيَةِ، طالِباً من صَنَمِهِ الحجَريِّ أن يُيَسِّرَ لَهُ قضاءَ حوائِجِهِ!.

بَعدَ ذلكَ انصَرَفَ تارِكـاً لِتمثالِهِ وعـاءَ اللَّبَنِ كي يَشْرَبَ منهُ هنيئاً! لم يَكُنِ الرَّجُلُ مُقْتَنِعاً بأَنَّ صَنَمَهُ ذاكَ سيشْرَبُ اللَّبَنَ، لذا وَقَفَ في مكانٍ غَيرِ بعيدٍ يتأَمَّلُ ويُفكِّرُ.

فَجاةً حَدَثَ مالَم يَكُنْ في الحُسبانِ!



إذِ اقتَرَبَ ثَعْلَبٌ برّيٌّ استَدْرَجَتْهُ رائِحَةُ اللّبَنِ إلى ذلكَ المكانِ، ثُمَّ هَجَمَ على وِعاءِ اللّبَنِ، وشَرِبَ كُلَّ ما فيهِ!

لم يَنتَـهِ المَشْهَدُ بِذلكَ، بَلْ تَوَّجَ الثَّعلَبُ فِعلَتَهُ تِلكَ بـأنْ بـالَ على الصَّنَمِ، ثُمَّ مضى في طريقِهِ وكأنَّهُ لم يَمسَّ الآلِهَةَ بِسوءٍ!

تَعَجَّبَ الرَّجُلُ ممّا رآهُ! وفَغَرَتِ الدَّهشَةُ فـاهُ، وهوَ يتَأَمَّـلُ الثَّعلَبَ يمضي مُختالاً مزهُوّاً دونَ أن تُحرِّكَ الآلِهَةُ لَهَ ساكِناً، بعدَ أن هَزَأَ بِفِعلَتِهِ الشّنعاءِ من قُدسِيَّتِها!

" يا لَلْعَجَبِ!". قالَ الرَّجُلُ في نَفْسِهِ! ثُمَّ راحَ يُفَكِّرُ مُحتاراً : أينَ كانَتْ عَظَمَـةُ الآلِهَـةِ ؟ بَل أينَ قِواها ؟ أيُعقَلُ أن أعتَمِدَ عَلَيها في قضاءِ حوائِجي فيما هيَ تَعجَزُ عن مُجابَهَةِ حيوانٍ ضَعيفٍ؟ أيُعقَلُ أن يكونَ الحيوانُ هذا أعْقَلَ من البَشَرِ في فهمِ حقيقَةِ الآلِهَةِ الّتي لا تضرُّ ولاتَنفَعُ؟



لم يَلْبَثِ الرَّجُلُ أخيراً أن قالَ:" ماعسى أن يكونَ لهذا المَعبودِ الّذي أعبُدُهُ من قُدرَةٍ ؟! وهُوَ حجَرٌ جامِدٌ لا يَستَطيعُ تَحريـكَ يَدَيْهِ لِيَرُدَّ عَنهُ عادِيَةَ كَلبٍ من كِلابِ البَرِّ أمطَرَهُ بِبَولِهِ!.".

ثُمَّ هَتَفَ بِبَعضِ أبياتٍ منَ الشِّعرِ على عادَةِ العَرَبِ في تِلكَ الأيّام، وقالَ:

أربٌّ يـبولُ الثَّعلبانُ بِـرَأْسِهِ؟ لقَدْ ذَلَّ من بالَتْ عَلَيْهِ الثَّعالِبُ
فَلَو كانَ ربّاً كانَ يَمنَعُ نَـفْسَهُ ولا خَيرَ في ربٍّ نَـأَتْهُ المطالِبُ
بَرِئْتُ منَ الأصْنامِ فالكُلُّ باطِلٌ وآمَنْتُ باللّهِ الّذي هُوَ غـالِبُ

في تِلكَ اللّحظَةِ انزاحَتْ عن قَلبِ ذلكَ الرَّجُلِ كُلُّ الغَشاواتِ، وتَبَرَّأَ من مُناةَ وغَيرِها منَ الأصنامِ والأوثانِ، وتَوَجَّهَ بِروحِهِ وقَلبِهِ إلى اللّهِ الواحِدِ الّذي خَلَقَها وخَلَقَ كُلَّ شيءٍ.

كانَ ذلكَ الرَّجُلُ هُوَ جُنْدُبَ بْنَ جُنادَةَ، أُمُّهُ رَملَةُ وهُوَ أبو ذرٍّ الغَفاريُّ الصَّحابيُّ الجليلُ المعروفُ!



وبدأتْ حياةُ أبي ذرٍّ الجديدَةُ في عالَمِ النّورِ والضِّياءِ.وراحَ يَنشُرُ قناعاتِهِ بينَ المحيطينَ بِهِ من بني قَومِـهِ ، بادئـاً بِأقرَبِ النّاسِ إليهِ: أمِّهِ رملَةَ وأخيهِ أنيسٍ، مستَشْهِداً بالموقِفِ الّذي تعرَّضَ لَهُ معَ الثَّعلَبِ، وغَيرِهِ منَ المواقِفِ الّتي فَتَحَتْ عَينَيْهِ على مزيدٍ منَ معرِفَةِ اللّهِ وتوحيدِهِ، حتّى لُقِّبَ بالمُتألِّهِ.

وكادَ أقرِباءُ أبي ذرٍّ يقتَنِعونَ بآرائِهِ، فيما انصَرَفَ هُوَ في عالَمِهِ الجَديدِ إلى إلهِهِ بِعَطَشٍ روحيٍّ قويٍّ، مُتَوَجِّهاً إلى حيثُ يُوجِّهُهُ حَدْسُهُ ونورُ قلبِهِ، ويُؤدّي الصَّلاةَ كيفَما كانَ، في انتِظارِ أن يلتَقي بالنَّبيِّ الّذي أخبَرَتْ عنهُ الكُتُبُ، فيتَعَلَّمُ ويُسْلِمُ.

وفيما أبو ذرٍّ على حالِهِ من اشْتِياقٍ إلى اللّقاءِ بِنَبِيِّ اللّهِ المنتَظَرِ، أقبَلَ رَجُلٌ من قَومِهِ حامِلاً إليهِ البُشرى، وهوَ يقولُ:

"يا أبا ذرٍّ! إنَّ رجُلاً بِمَكَّةَ يقولُ بِمَقالَتِكَ، يَزعُمُ أنَّه نبيٌّ ويدعو النّاسَ إلى عبادَةِ اللّهِ.".

هَتَفَتِ الفَرحَةُ في أعماقِ أبي ذرٍّ، تُطالِبُهُ بأنْ يُعجِّلَ في السُّؤالِ عنْ حقيقَةِ الأمرِ، ويتَأكَّدَ من نُبُوَّةِ الرَّجُلِ الّذي سَمِعَ عَنهُ في الحالِ.



فأسْرَعَ يَحثُّ الخُطا إلى أخيــهِ أنيس، طالِبـاً منهُ أن يُسرِعَ إلى مكَّةَ من فَورِهِ ويَسْتَطلِعَ حقيقَةَ ما يُشاعُ. فما لَبثَ أن عــادَ إليهِ بالبُشرى، قائلاً لَهُ قَبلَ أن يَنفُضَ عن ثِيابِهِ غُبـارَ الطَّريقِ : "لقد رأيتُ رَجُـلاً يأمُرُ بالخَيرِ، ويَنهـى عنِ الشَّرِّ والبَغـيِ والمُنكَــرِ والعُدوانِ، ويدعو إلى عِبـادَةِ إلهٍ واحِدٍ لا شَـريكَ لَهُ ولا نَظيرَ، ويَسخَرُ منَ الأصنام وعِبادَتِها!".

طارَتِ الفَرحَةُ بأبَي ذرٍّ تَحمِلُهُ إلى مكّةَ المُكـرَّمَةِ، يُفَتِّشُ في وُجوهِ النّاسِ عنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله، فطافَ في الشَّوارِع كُلِّها، وتَصَفَّحَ كُلَّ الوجوهِ الّتي التَقاها دونَ أن يَعثُرَ على غايَتِهِ بَيْنَهُم.

ولم يتوقَّفْ أبو ذرٍّ عن تجوالِهِ إلاّ حينَ أمَرَهُ الظَّلامُ المُقبلُ معَ خُطوطِ الغَسَقِ الورديَّةِ، ورأى الكعبَةَ الشَّريفَةَ خالِيَةً منَ النّاسِ، فتمَلَّكَتِ الحَيْرَةُ من نَفْسِهِ، وازدادَتْ سَطوَتُها حينَ رأى شابّــاً مُقْبِلاً لِيَطوفَ في الكَعْبَةِ وحيداً!

مرَّ الشّابُّ بِأبي ذرٍّ فَعرَفَهُ غريباً عن مَكّةَ،وَقالَ لَهُ:"منِ الرَّجُلُ؟".

فقالَ أبو ذرٍّ:" من بني غِفارٍ!." فدعاهُ الشّابُّ إلى بيتِهِ، حيثُ مضى أبو ذرٍّ معهُ دونَ أن يَسْأَلَ أحَدُهُما الآخرَ عن أيِّ شيْءٍ!



وتكَرَّرَ ذلكَ الموقِفُ بَينَ أبي ذرٍّ والشّابِّ في اليومِ التّالي. كانَ ذلكَ الشّابُّ هُوَ عليّاً بنَ أبي طالِبٍ عليه السلام، الّذي التَقاهُ في اليَومِ الثّالِثِ أيضاً وقـرَّرَ أن يَسْـألَهُ عنِ النّبيِّ صلى الله عليه وآله الّذي وَصَلَتْ أخبارُهُ إلَيهِ، فوَعَدَهُ بأن يَصْحَبَـهُ إليـهِ إن عاهَدَهُ على كتمـانِ أَمرِهِ، إذ كانَتِ الدَّعْوَةُ الإسلاميَّةُ سرِّيَّةً في ذلكَ الوَقْتِ.

فَأَسْرَعَ أبو ذرٍّ يُسابِقُ الفَرْحَةَ إلى لِقاءِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله، حتّى وَقَفَ بَينَ يَدَيْهِ، يتأمَّلُ ضِياءَ وَجْهِهِ الشَّريفِ، ويَهتِفُ من أعمـاقِ فُؤادِهِ: "السَّلامُ علَيكَ يارَسولَ اللّهِ!".

بذلِكَ كانَ أبـو ذرٍّ أوَّلَ من حيّـا رَسولَ اللّهِ صلى الله عليه وآله بتَحِيَّـةِ الإسلام.

ظلَّ أبو ذرٍّ في حضْرَةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله يَسْتَمِعُ إلى قَولِـهِ، حتّى امتَلأَتْ نَفْسُهُ بالاطمئنانِ الكامِلِ، ووَجَدَ ما كانَ يَبْحَثُ عَنْـهُ من عِلْمٍ ويَقينٍ.

ثُمَّ شَهِدَ بأن لا إلهَ إلاّ اللّهُ، وأنَّ مُحَمَّداً رَسولُ اللّهِ. وقبلَ أن يُغادِرَ إلى قبيلَتِهِ، قالَ للنّبيِّ: "يارَسولَ اللّهِ، ماتَأمُرُني؟".

فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: "آمُرُكَ أن تَرجِعَ إلى قَومِكَ حتّى يَبْلُغَكَ أمري.".



فقـــالَ أبو ذرٍّ: " والّذي نفسي بِيَـــدِهِ، لا أرجِـعُ حتّى أصرُخَ بالإسلامِ في المَسجِدِ!".

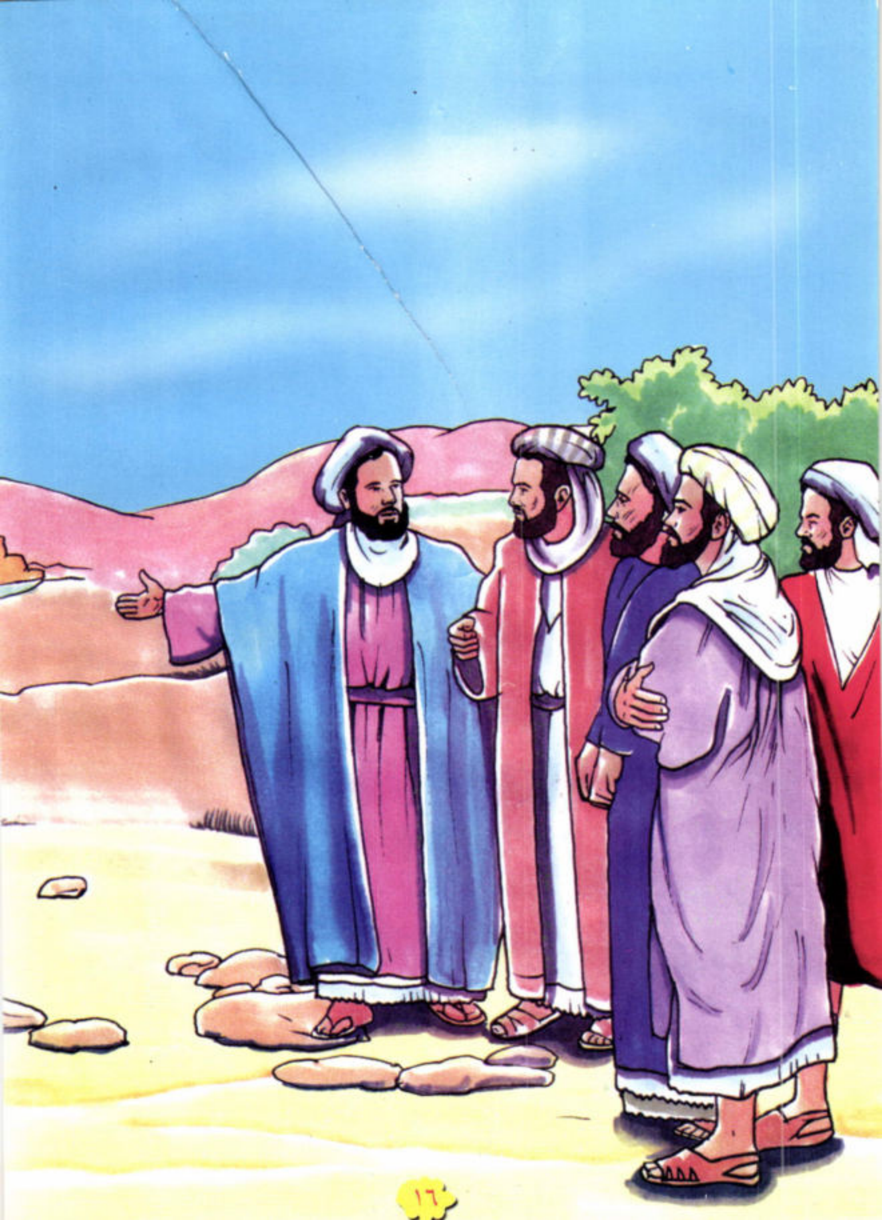
قالَ أبو ذرٍّ ذلكَ، ثُمَّ انطَلَـقَ إلى المسـجِدِ يَتَحدّى مُشرِكـي قُرَيْش، منادياً فيهِ بأعلى صَوْتِهِ:

" أشْهَدُ أن لا إلهَ إلاّ اللّهُ وأنَّ مُحَمَّداً عَبدُهُ ورَسولُهُ!". وبذلكَ كانَ أبو ذرٍّ رابعَ أو خامِسَ رَجُلٍ يُعلِنُ إســـلامَهُ في التّـاريخ.

فَهَبَّ المُشركونَ إلَيهِ يتصايحونَ: " لَقَد جُنَّ الرَّجُلُ!". وانهالَوا عَلَيهِ يَضربونَهُ حتّى أغمِيَ عَلَيهِ منَ الألَم!

في تِلكَ اللّحظَةِ أقبَلَ العبّاسُ عَمُّ النَّبيِّ ﷺ، ووجَدَ الرَّجُـلَ على تِلكَ الحـالِ بينَ أيدي المُشركينَ، فأشْفَـقَ عَلَيهِ وانْحـنى يَرفَعُهُ حتّى خَلَّصَهُ منْهـم، وراحَ يَصيـحُ بالنّاسِ مُـحَذِّراً: " يا مَعشَرَ قُرَيشٍ! إنَّ طَريقَكُم في تِجارَتِكُـم على قبيلَةِ غِفـــارٍ، وإنَّهُم سَيَقطَعونَ الطّريقَ علَيكُمْ إن أصِبتُمـوهُ بِمَكـــروهٍ".

لكنَّ أبا ذرٍّ تَحامَلَ على آلامِهِ، وتَوَعَّدَهُم مُهَدِّداً بِأن يَنتَقِـمَ منهُم بِنَفسِهِ كُلَّما مرَّتْ تِجارَتُهُم على قبيلَةِ غِفـارٍ، ثُمَّ انطَلَقَ لِتُسلِمَ مَعَهُ أُمُّهُ رَملَةُ، وأخوهُ أنيسٌ.



ليسَ هذا فَحَسبُ، بل إنَّهُ راحَ يُخبِرُ أبناءَ قبيلَتِهِ عن قِصَّتِهِ في لِقاءِ النَّبيِّ ﷺ حتّى أَسلَمَ نِصْفُهُم، فيما أسلَمَ الباقـونَ بَعدَ هِجْرَةِ النَّبيِّ ﷺ إلى المدينَةِ المُنَوَّرَةِ!

وما نسيَ أبو ذرٍّ أن يُنَفِّذَ تَهديدَهُ لِمُشركي قُرَيشٍ. إذ أقامَ بِعَسَفانَ في انتِظارِ مُرورِ قوافِلِهِم الّتي كانَ لا بُدَّ لها أن تمرَّ من هُناكَ في طَريقِهـا إلى الشّامِ، كي يُلـزِمَ النّاسَ بالنُّطقِ بالشَّهادَتَينِ.

وظلَّ على عَمَلِهِ هذا حتّى هاجَـرَ النَّبيُّ ﷺ إلى المدينَةِ المُنَـوَّرَةِ، وتَحَـوَّلَ أبو ذرٍّ إلى واحِدٍ من أقـرَبِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ إليهِ. فَنالَ لِفَضائِلِ نَفسِهِ مكانَةً رفيعَـةً في قَلْبِ النَّبيِّ ﷺ الّذي كانَ يبتدِئُهُ إذا حضَـرَ، ويَتَفَقَّدُهُ إذا غابَ، وكانَ يُجيبُهُ عن أسئِلَتِهِ الّتي لا تَنتهي، حتّى وعـى أبو ذرٍّ عِلْماً لم يتيسَّرْ لِسِواهُ من البشَرِ، وقد حفِظَ العلمَ في قلبِـهِ، ولم يُحدِّثِ النّاسَ إلاّ ببعضِهِ، لأنَّ عقولَهُم لا تحتَمِلُهُ.



وقدِ امتَحَنَ اللّهُ سبحانَهُ إيمانَ أبي ذرٍّ في أكثَرِ من غَزْوَةٍ خاضَها النَّبيُّ ﷺ، فَكانَ من أشجَعِ المسلمينَ في القِتالِ، فلازَمَ النَّبيَّ ﷺ، ولم يُضيِّعْ لحظةً يُمكِنُهُ فيها أن يرتَشِفَ قطرَةَ علمٍ من علومِ النُّبُوَّةِ، ولم يتوانَ عن القِيام بأيّةِ مسؤوليّةٍ يُعهدُ بها إليهِ في سبيلِ الإسلام، مهما كانت صعبةً أو شاقّةً.

كانَ أهَمُّها حينَ أوكلَ إليهِ النَّبيُّ ﷺ أمرَ تعليم قومِهِ لما وَجَدَهُ فيهِ من ميزاتٍ عقليَّةٍ واعيةٍ، وقدرةٍ على تمييزِ الحقِّ منَ الباطِلِ، وشَرحِ الأحاديثِ والقرآنِ، وتفقيهِ النّاسِ في دينِهِم؛ وكانَ نجاحُهُ عظيماً وإنجازُهُ هامّاً بإسلام عددٍ كبيرٍ من النّاسِ على يَدَيهِ.

هذا الإيمانُ الصّادقُ دَفَعَ النَّبيَّ ﷺ ليَشْهَدَ بِهِ بِقَولِهِ:" ما أظلَّتِ الخَضراءُ، ولا أقَلَّتِ الغَبراءُ من ذي لهجَةٍ أصدَقَ من أبي ذرٍّ".

وكانَتْ لَهُ أحاديثُ كثيرَةٌ فيهِ، منها قَولُهُ ﷺ:

"يمشي وحدَهُ، ويموتُ وحدَهُ، ويُبعَثُ وحدَهُ، ويَشْهَدُهُ عِصابَةٌ من المؤمنينَ.".

وقالَ ﷺ :" أبو ذرٍّ في أمّتي على زُهدِ عيسى بنِ مريمَ".وَ:" أبو ذرٍّ صِدّيقُ هذهِ الأمّةِ.".



إنَّ مزايا أبي ذرٍّ وشَجاعَتَهُ الفَذَّةَ، أهَّلَتْهُ للوُقوفِ في وجهِ من حَرَّفَ وصِيَّةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله بَعدَ وَفاتِهِ، وشَهِدَ زوراً وباطِلاً لإبعادِ عليٍّ عليه السلام عنِ الخِلافَةِ، إضافَةً لاتِّخاذِهِ موقِفَ الثّائِرِ على أولئِكَ الّذينَ جَعلوا من خِلافَتِهِم للمُسلمينَ وسيلَةً للظُّلمِ والاستِبدادِ وأكلِ حقوقِ النّاسِ بالباطِلِ.

فلم يَكنْ بغَريبٍ على المسلمينَ أن يسمعوهُ وهوَ مُتَعَلِّقٌ ببابِ الكعبَةِ يخطُبُ فيهِم قائلاً: " سَمِعتُ رَسولَ اللّهِ صلى الله عليه وآله يقولُ: " إنّما مَثَلُ أهلِ بيتي في هذِهِ الأمَّةِ مَثَلُ سَفينَةِ نوحٍ في لُجَّةِ البَحرِ، مَنْ رَكِبَها نجا، ومَنْ تَخَلَّفَ عنها غَرِقَ. ألا هَلْ بَلَّغْتُ؟".

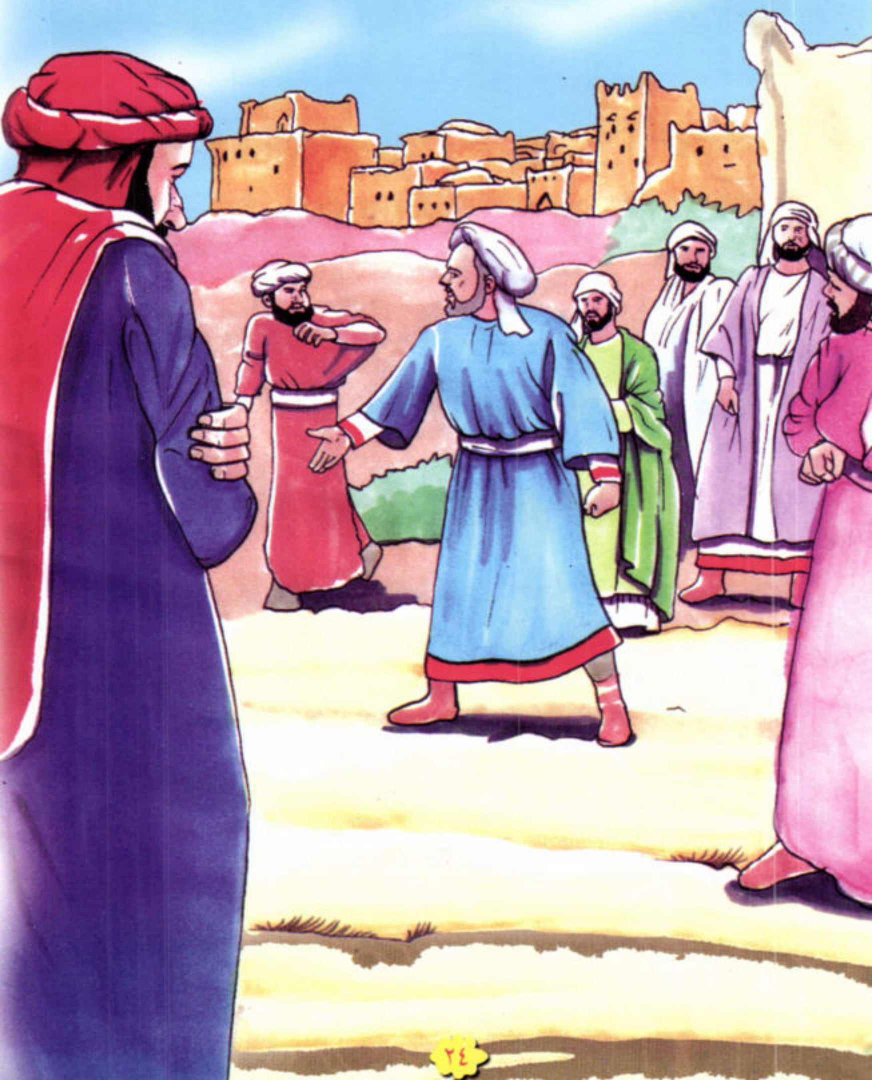
وهاهُوَ يُخَبِّرُ النّاسِ بِكُلِّ ما يَحتاجونَ إلى سَماعِهِ بَعدَ أن جَنَحَ بِهِمُ الزّمانُ عنِ الحقيقَةِ، قائلاً بِنَبرَتِهِ الصّادِقَةِ الواثِقَةِ:" قالَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: مَنْ سَرَّهُ أن يَحيا حياتي، ويموتَ مماتي، ويَسْكُنَ جَنَّةَ عَدنٍ الّتي غَرَسَها ربّي، فَليَتَوَلَّ عليّاً بَعدي، وليقتَدِ بالأئِمَّةِ من بَعدِهِ، فَإنَّهُم عترَتي، خَلَقَهُمُ اللّهُ من لَحْمي ودمي، وأتاهُم فَهمي وعِلمي، وَيلٌ لِلمُكَذّبينَ بِفَضْلِهِم من أمّتي، لا أنالَهُمُ اللّهُ شَفاعَتي.".



هكذا عاشَ أبو ذرٍّ الغفـاريُّ (رض)، عاشَ بينَ النّاسِ مُعَلِّماً ومُفَقِّهاً، ولطالَما سَمِعوهُ يقولُ لَهُم: " أيُّها النّاسُ! إنّي لَكُم ناصِحٌ، إنّي عَلَيكُم شَفيقٌ، صَلّوا في ظُلمَةِ اللّيـلِ لِوَحشَةِ القُبورِ، صوموا في الدُّنيا لِحَرٍّ يَوم النُّشورِ، تَصَدَّقوا مخافَةَ يَومٍ عَسيرٍ، يا أيُّهـا النّاسُ! إنّي لكُم ناصِحٌ، إنّي عَلَيكُم شَفيقٌ." .

هذا السّلوكُ الّذي صَمَّمَ أبو ذرٍّ أن يلتَزِمَهُ بَينَ النّاسِ، أزْعَجَ أهلَ الحُكم والسُّلطَةِ، الّذينَ رأوا النّاسَ يلتَفّونَ حـولَ أبـي ذرٍّ، ويُصَدِّقونَ كلامَهُ لما يَعرفونَهُ عنهُ من صِدقِ الحديثِ والقُربِ من النَّبيِّ صلى الله عليه وآله. لذا قرَّروا التّخَلُّصَ منهُ!

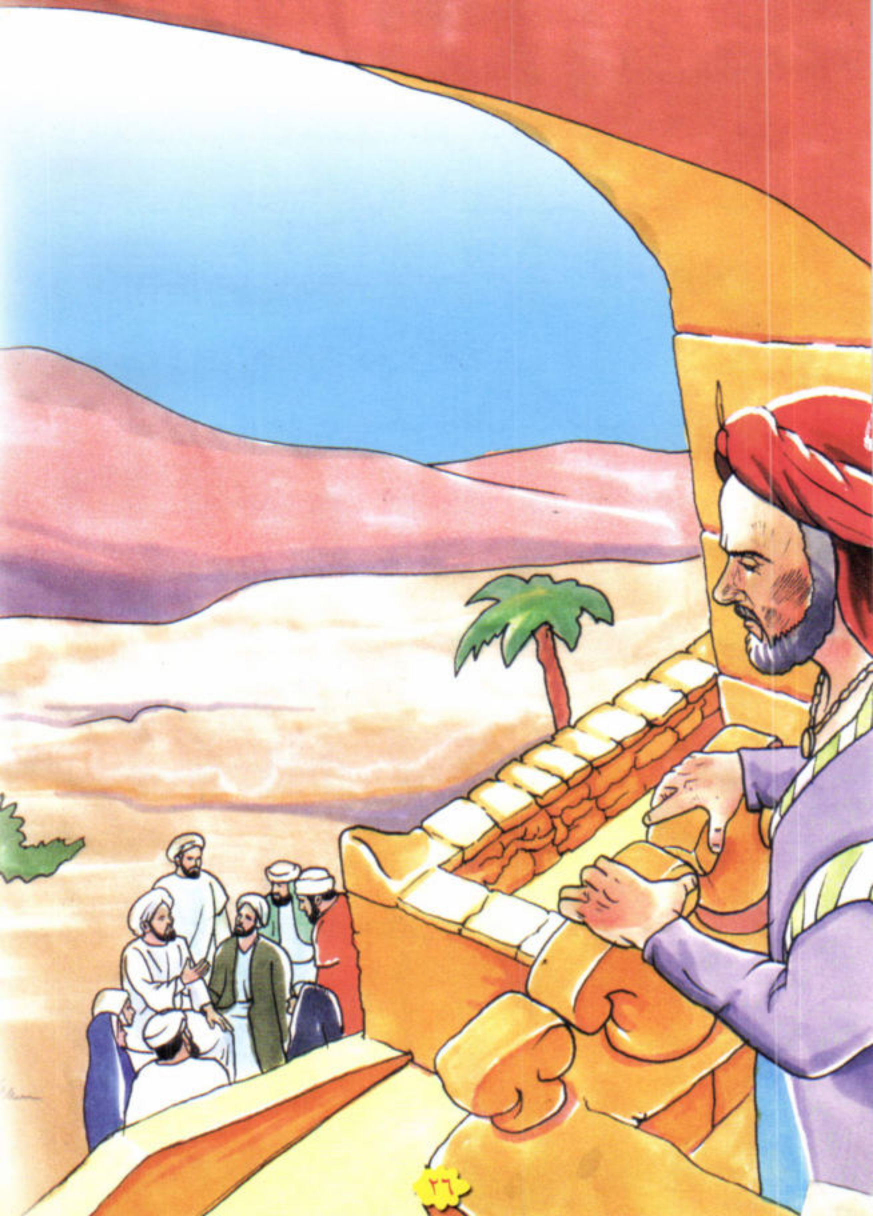
نعم، إذ حَدَثَ في عَهـدِ عُثمـانَ بنِ عفّـانَ ما لم يَحدُثْ من قبلُ في تَبديدِ أموالِ المُسلمينَ وصَرفِها على أقربـاءِ الخليفَـةِ وخاصَّتِـهِ من بني أُمَيَّـةَ، إضافـةً إلى التَّضييقِ على أصحـابِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله الّذينَ أنكـروا تِلكَ الأعمـالِ ورفضـوا السُّكوتَ عنها. وكانَ أكثَرُهُم شَجاعَـةً في إعلانِ استِنكـارِهِ ذاكَ على المَلأِ أبا ذرٍّ الغِفاريِّ (رض).



إذ إنّهُ عَلِمَ مرَّةً أنَّ عُثمانَ أعطى مروانَ بنَ الحَكَمِ وغَيرَهِ بيوتَ الأموالِ، واختَصَّ زيداً بنَ ثابتٍ بشَيْءٍ منها، فراحَ أبو ذرٍّ يصيحُ في الطُّرُقاتِ فاضِحاً أولئكَ القَومِ بِقَولِهِ: " بشِّرِ الكافِرينَ بِعذابٍ أليم". ثُمَّ راحَ يتلو آياتٍ منَ القُرآنِ الكريمِ تُهَدِّدُ وتتوعَّدُ من يَكنِزُ المالَ بالعَذابِ.

فأرسَلَ إليهِ عُثمانُ ينهاهُ عمّا يَفعَلُهُ بينَ النّاسِ، فأجابَ:" أيَنهاني عُثمانُ عن قِراءَةِ كِتابِ اللّهِ تعالى؟...فواللّهِ لَئِن أُرضي اللّهَ بِسَخَطِ عُثمانَ أحبُّ إليَّ، وخَيرٌ لي من أن أُسْخِطَ اللّهَ بِرِضا عُثمانَ!".

ولمّا تَكَرَّرَتْ مواقِف أبي ذرٍّ الّتي بَدَأتْ تُحَرِّكُ النّاسَ، وتُثيرُهُم على الحاكِمِ، رأى عُثمانُ أن يُبْعِدَهُ إلى الشّامِ، حيثُ كانَ مُعاوِيَةُ بْنُ أبي سُفيانَ والِياً، يعيشُ الجاهِلِيَّةَ قَولاً وفِعلاً، ولا يَنقُصُهُ إلاّ أن ينصُبَ أوثاناً ويدعو إلى عِبادَةِ اللاّتِ والعُزَّةِ!



وهُناكَ كانَتْ مواقِفُ أبي ذرٍّ أشَدَّ قُوَّةً وجُرأةً، فَراحَ بنو أميَّةَ يُهَدِّدونَهُ بالقَتلِ، وكانَ جوابُهُ الشَّهيرُ:" إنَّ بني أُمَيَّةَ تُهَدِّدُنــي بالفَقرِ والقَتلِ، ولَبَطنُ الأرضِ أحبُّ إليَّ من ظَهرِها، ولَلْفَقرُ أحبُّ إليَّ منَ الغِنى!.".

تضايَقَ مُعاوِيَةُكثيراً من تَحريضِ النّاسِ على أفعالِهِ المُنكَرَةِ، ومن صَوتِ أبي ذرٍّ على بابِ دارِهِ في كُلِّ يَوم يَهدُرُ قائِلاً:" اللّهُمَّ العنِ الآمرينَ بالمَعروفِ التّارِكينَ لَهُ! اللّهُمَّ العَنِ النّاهينَ عنِ المُنكَرِ المُرتَكِبينَ لَهُ!".

وقد تَأثَّرَ كَثيرٌ منَ النّاسِ في الشّام بمواقِفِ أبي ذرٍّ، وتزَوَّدوا من عِلمِهِ ما وَصَـلَ بِهِـم إلى مُوالاةِ آلِ بيتِ النَبيِّ صلى الله عليه وآله، ومنـهُ انتَشَرَ المذهَبُ الشّيعيُّ في جَنوبِ لُبنانَ حيثُ يعيشُ أحفــادُ تلاميذِهِ إلى اليــوم على حُبِّ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، وآلِ بَيْتِهِ الأطهـارِ.

فَأرسَلَ مُعاوِيَةُ إلى عُثمانَ بَعدَ أن رأى بِأُمِّ عَينِهِ التِفافَ النّاسِ حَولَ أبي ذرٍّ(رض)، يَطلُبُ منهُ أن يُخَلِّصَهُ منهُ قَبلَ أن يَستَفحِلَ الخَطَرُ، ويَنقَلِبَ المُجتَمَعُ كُلُّهُ عَلَى خِلافَةِ عُثمانَ.

فطَلَبَ عُثمانُ أن يُؤتى بهِ إليهِ في الحالِ ، فأُرسِلَ على بعيـرٍ عليهِ قِتبٌ يابِسٌ حتّى تسَلَّخَ فَخذاهُ، وكادَ أن يموتَ في الطَّريقِ.



وحينَ وَصَلَ إلى المدينةِ المنوّرةِ جَرَّبَ عُثمانُ أن يُحسِنَ إليهِ عَلَّهُ يَضْمَنُ بِذلكَ سُكوتَـهُ. ولكن، كيفَ يُمكِنُ لِرَجُلٍ كَأبي ذرٍّ أن يَفعَل؟

أخيراً ضاقَ عُثمانُ ذرعاً، وقرَّرَ أن يَنفِيَهُ من جَديدٍ. ومـا إن أخْبَرَهُ بالمكانِ الّذي قرَّرَ أن يَنفِيَهُ إليهِ،حتّى تَهَلَّلَ واسْتَبشَرَ. إنّها الرَّبْذَةُ، وقد أخبَرَهُ عنها رَسولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله!

لم يَكتَفِ عُثمانُ بِذلِكَ ، بل إنَّهُ فَرَضَ على النّاسِ ألاّ يَخرجوا لِوداعِ أبي ذرٍّ أبداً عقاباً لَهُ، فَلَم يَجرُؤْ أحَدٌ على وداعِـهِ سِـوى الإمامِ عليٍّ عليه السلام، وولديهِ الإمامينِ الحسنينِ عليهما السلام، وعقيلٍ بنِ أبي طالبٍ، وعمّارٍ بنِ ياسِرٍ(رضي اللّهُ عنهُما).

وكانَ ممّا قـالَهُ لَهُ الإمـامُ عليٌّ عليه السلام ساعَةَ وداعِـهِ:" سَتَعلَمُ مَنِ الرّابِحُ غَداً، والأكثَرُ حَسَداً، ولو أنَّ السّمواتِ والأرضينَ كانتـا على عبدٍ رتقاً ثمَّ اتَّقى اللّهَ، لَجَعَلَ اللّهُ لَهُ منهُما مَخرَجاً".



هُناكَ في الرّبذَةِ، الأرضِ القَفراءِ قضى أبو ذرٍّ بَقِيَّةَ أيّامِـهِ، حتّى دَنَتْ ساعَةُ وفاتِهِ و مامَعَهُ إلاّ ابنَتُهُ. وقد ماتَتْ غُنَيماتُهُ كُلُّها بداءٍ أصابَها، فَأَصابَهُ وابنَتَهُ الجوعُ. وبعدَ ثلاثَةِ أيّامٍ لَم يَأكُلا فيها شَيئاً، هوى أبو ذرٍّ على الأرضِ، وقبلَ أن يُسلِمَ الرُّوحَ إلى بارِئِها قالَ لابْنَتِهِ: " يا بُنَيَّةُ لا تَخافي! فَإنّي إذا مِتُّ جاءَكِ من أهـلِ العِـراقِ من يكفيكِ أمري."

ثُمَّ أخبَرَها بِمـا قالَهُ لَهُ النَّبيُّ ﷺ عن سَاعَةِ وفاتِـهِ، وأوصاهـا أن تَقعُدَ بَعدَ وفاتِـهِ على طريقِ العراقِ كي تَـدُلَّ الرَّكبَ عَلَيهِ، وتقولَ: " هذا أبو ذرٍّ صاحِبُ رسولِ اللّهِ ﷺ قد تُوُفّي.

وبالفِعلِ فَعَلَتِ ابنَةُ أبي ذرٍّ ما أمَرَها بِهِ أبوهـا، فَأقبَـلَ القـومُ، وحَمَدوا اللّهَ على ماسَيَنالُهُم منَ الأجْرِ والكرامَةِ في تَولّـي أمـرِ دَفنِ أبي ذرٍّ. ثُمَّ تولّوا تجهيزَهُ وتَغسيلَهُ والصَّلاةَ عَلَيهِ، يَتَقَدَّمُهُـم مـالِكٌ الأشْتَرُ. وبذلكَ انتَهَتْ حيـاةُ هذا الصّاحِبِ الكريمِ من أصحابِ الرَّسولِ ﷺ. رضيَ اللّهُ تعالى عنهُ

